# الشيخ علي الطنطاوي الخطيب الأديب

**ما عرف عن الشيخ علي الطنطاوي، رحمه الله، إلا روح الشباب المتوقدة حتى في سني حياته الأخيرة، فكنت تراه يطل عليك من وراء شاشة (الرائي) ليبعث فيك روحا لايبعثها غيره من المتحدثين، وكنت دائما تحس أن فيه من روح الشباب ماليس فيك وهو ابن الخامسة والثمانين وأنت ابن الخامسة والعشرين، فما بالك بهذه الروح وهو ابن الثلاثين أو الخامسة والثلاثين، وهذه أهم صفة في الخطيب الذي يراد منه إشعال روح الشباب الوثابة في أمة انتهكت حرماتها لكي تهب من رقادها.**

## هتاف المجد :

في تلك الفترة من حياة الشيخ كانت بعض البلدان العربية قد تحررت من ربقة الاستعمار وبدأت تتلمس طريقها نحو النهضة بشعوبها واحتلال موقع لها تحت الشمس، وكان بعضها الآخر مايزال يرزح تحت إسار الاستعمار الغربي، وكانت شعوب تلك البلدان تبذل الغالي والرخيص في سبيل نيل حريتها وفك قيودها. وكان الشيخ – وهو يرى بني دينه وقومه بين مقاتل من أجل الحرية ومكافح من أجل النهضة – يوزع جهوده بين هذا وذاك بالقلم واللسان وعلى منابر الخطابة وصفحات الجرائد.

كان – وهو يرى بني أمته يكيلون لقوى العدوان الصاع تلو الصاع – ينفث في شباب الأمة وقادتها وعلمائها روحا لم يفتأ يستمد لها القوة من الله حتى تحقق للأمة ماتريد. وقد تجلى ذلك واضحا في أحد كتبه الذي جمع فيه مقالات وأحاديث إذاعية كتبها بروح الخطيب وأسلوب الخطابة

ونشرها على فترات متفاوتة خلال تلك الفترة العصيبة والغنية في آن من حياة الأمة ووسم هذا الكتاب بعنوان يدل على مضمونه ألا وهو "هتاف المجد" .

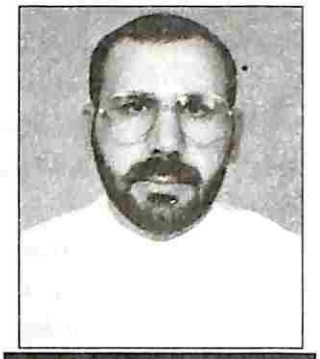

بقلم: عبدالباسط أحمد
سورية

## خطيب الأمة :

والمستعرض لما يتضمنه هذا الكتاب الذي يعكس روح الشيخ الوثابة تطلعا للمجد واستعادة لما أهدرته الأيام منه يجد الشيخ يتناول جميع معارك الأمة على جميع الصعد التحررية والدينية والاجتماعية والاقتصادية بل والسياسية حتى إن القارئ ليرى نفسه في خضم بحر متلاطم من المشاعر الإسلامية الوحدوية التي سعى الشيخ من خلال كلماته التي تشع بروح الجهاد وحلو الأمل إلى ترسيخها في نفوس الشباب والشيوخ على السواء، وحتى كأن القارئ يرفع رأسه إليه من خلال كلماته وهو على أعواد المنابر يحث العرب والمسلمين على العودة إلى أصول الدين الحنيف ليستعيدوا العزة التي بناها لهم مجيء محمد (صلى الله عليه وسلم) فيهم فيذكرهم قائلا: "لما كان هتافنا (أمجاد ياعرب أمجاد) لم تنصرنا أمجاد العرب، لأن مجد العرب الحق ولد يوم ولد محمد..."[1] بل ويبشر بطلائع عودة المجد التليد لأبناء الإسلام الحق فيقول في لغة ليس أجمل منها: "إن النهار لنا، لقد أذن مؤذن النهضة فينا: حي على الفلاح، فقمنا، وصاحت ديكة الفجر تطرد بقايا النوم عن عيون الزهر. والمستقبل لنا"[2].

ومع هذه النزعة الإسلامية الجامعة التي تضج بها كلمات الشيخ تتسارع مفرداتها فتشرق وتغرب حتى تجمع الأمة في إطار واحد، وكأنك وأنت تقرأ أحاديثه وخطبه التي تضمنها الكتاب تلمح في الأفق خيول الله تعدو ضبحا من كل ركن دان وقاص لتقيم للمسلمين ذلك الكيان الجامع رغم أن دنيا المسلمين في الأيام التي كتب فيها الشيخ هذه المقالات والخطب لاتعدو أن تكون بعض مزق من شلو ممزع، تسمعه يقول: "أفنعجز أن نوجد للمسلمين نظاما جديدا مبتكرا، يجمع متفرقهم ويدني بعيدهم ويصلحهم ويصلح لهم"[3]. ويقول :"أما الإسلام: فهو في ذاته قوة لايحتاج إلى قوة أتباعه ليؤيدوه بها، بل هو الذي يؤيدهم بقوته فينصرون"[4]. فتدرك أن الشيخ قد آمن إيمانا راسخا أن الظفر لايكون إلا بما كان به ظفر أول هذه الأمة وتشعر أنه يحس في الأمة جمرا تحت الرماد ماعليه إلا أن ينفخ فيه حتى يتقد وقد بذل جهده في هذا الجانب من خلال المقالة والحديث الإذاعي والخطبة المرتجلة في المظاهرات واللقاءات والمناسبات كما عكسها الشيخ في هذا الكتاب.

## الأديب الملتزم والخطيب الناصح :

والشيخ في هذا الكتاب خطيب المعركة الذي يحرض المؤمنين على القتال لاستعادة الكرامة والعزة والمجد التليد ولكن ضمن إمكانيات الحاضر وهي كما يقول ليست بالقليل. فهاهو يناديهم فيقول: "فيا أيها العرب، فوق كل أرض، وتحت كل سماء، لقد جئت الليلة، ليلة هجرة محمد (صلى الله عليه وسلم)، أستحلفكم أن تشقوا بربكم، وأن لاتعتمدوا إلا على نفوسكم"[5]. ولاينسى في خضم ذلك مناقب الأديب الملتزم ورسالة الخطيب الناصح فيقول: "إني أكون خائنا لديني ولأدبي إذا أنا غششتكم في يوم هجرة نبيكم، أو كتمت الحق عنكم، إنكم لطالما تنكرتم لدينكم ونسيتم أقداركم واحتقرتم نفوسكم"[6]. ومن ثم يقول لهم بكلام واضح: "فإذا أردتم أن تستعيدوا في الدنيا مكانكم، وتسترجعوا مجدكم، فالطريق مفتوح أمامكم، فاحملوا المصحف بيد، والسيف بيد وامشوا على بركة الله"[7].

والشيخ في هذا الكتاب دائم الوقوف على شرف يطل منه على قضايا المسلمين كلها وأهمها قضية فلسطين التي بذل لها من قلمه ولسانه ونفسه الكثير حتى ملكت عليه قلبه وأقضت عليه مضجعه فهو دائم التحفز ودائم الدعوة إلى القتال لاسترداد هذه البقعة المباركة من ديار المسلمين فيقول: "... إنها قضية دين وعقيدة، إن كل مسلم يدخل المسجد الأقصى، ويقوم حيال الصخرة ينسى كل شيء إلا أن ههنا موطنا من مواطن الروح، منزلا من منازل القدس، تسترخص في سبيله الأرواح، ويبذل في سبيله كل شيء، إنها قضية جهاد في سبيل الله"[8]. وأنت تقرأ هذه المقالات والأحاديث والخطب تلمس في الشيخ المتابعة اللصيقة للحدث لايتركه يمر دون أن ينفخ في الأمة من وحيه روح النهوض للعلا. فمن قرار التقسيم، إلى إضراب دمشق، إلى مجازر فرنسا في الجزائر، إلى ثورة يوليو في مصر، وإلى أسبوع التسلح في دمشق كان الشيخ يعتصر ألما أو يهتز فرحا، وبين هذا وذاك من المشاعر يتجلى فيه بيان الخطيب المفوه الهادف نحو إثارة مشاعر الأمة واستنهاض هممها لنيل المجد بالدم والحديد والنار.

وتراه وهو يعدد أسباب هوان الأمة وضعفها وهزيمتها فتعرف فيه الخطيب الآسي الذي يعرف من أين أتيت الأمة، ويعرف دواءها، بل ويصف لها الدواء، وهو القيادة المتمسكة

بكتاب الله، والعودة إلى شرع الله الحنيف، والأخذ بأسباب القوة.

ولاينسى الشيخ في غمرة الحروب التي كانت الأمة تعيشها شرقا وغربا أن يوجه الأدباء من الشباب إلى أن يعيشوا قضايا أمتهم وأن ينشروا الفضيلة بين الناس ويحذرهم من الأدب الخليع، فهذه معركة أخرى إن لم يدل فيها بدلوه ستكون القاضية، وليس بعد الدين والأخلاق إذا استبيحا معركة بالسلاح.

وتتجلى قدرة الشيخ الأدبية ومشاعره الجميلة وهو يودع عاما ويستقبل عاما آخر فيقول: "بعد ساعة واحدة ينقضي هذا العام فتبتلعه هوة العدم، ويفتح الماضي ذراعيه، ليضمه إلى الأعوام الكثيرة التي مرت من قبله، ويؤلفها (رزمة) واحدة، ثم يلقيها في بحر الأبد ..."[٩]. بمكنة الأديب المسلم الذي يرى في الأدب الملتزم الرفيع سبيلا من سبل بناء الحاضر على أساس متين من الماضي.

ولئن كان الشيخ ومن وحي الأحداث الجسام التي كانت تمر بالأمة لها أو عليها يأخذ من الكلمات ألذ مافيها من رحيق وأقوى مافيها من نار ونور كما عبر هو نفسه عن ذلك إلا أنه يرى نفسه عاجزا عن التعبير في بعض الأحيان أمام مشاهد البذل والعطاء فيقول: "إني قد عجزت، وأنا مقر بعجزي، ولن أدعي بعد اليوم أني من فرسان الكلام، وأني من أرباب القلم"[١٠]. وهو يعلم علم اليقين أنه لولا وقع كلماته في النفوس لما رأى مارأى من هذا البذل والعطاء.

والشيخ في كل هذه المقالات والأحاديث والخطب قريب جدا جدا من الناس لايكلمهم من برج عاجي كما يفعل بعض الخطباء والمتحدثين، وإنما ينزل إليهم ويلمس جراحهم ويفرح لأفراحهم فترى لكلماته أثرا بينهم قل أن يصل إليه خطيب أو متحدث. فهو يخاطب الحاكم والعالم والأديب والأمي والصغير والكبير والرجل والمرأة، فهو من ثم خطيب الشعب يستلهم موضوعاته من الشعب وينتهي به القصد إلى النهوض بهذا الشعب.

وكم تلمس روح الأمل في كلمات الشيخ، وكم تجد فيها من إيمان بقدرة الأمة على تحقيق أمانيها، فهو لايفتأ يذكرها في كل خطبه برجالاتها الذين رفعوا هامها عاليا ولايخص بالذكر منهم الفاتحين والمحررين بل والرجال العاديين الذين أبلوا خير البلاء في سبيل رفعة الأمة فخلدت الأيام ذكرهم أبطالا منافحين عن كرامة الأمة وعزتها.

## مواقف خطابية:

ولابد لنا ونحن نتحدث عن الشيخ خطيبا وأديبا من خلال هذا الكتاب أن نرجع إلى ذكريات الشيخ لنقف على بعض العبارات التي ساقها الشيخ في ذكرياته عن قدرته الخطابية وبعض المواقف الخطابية المشهودة التي تثبت مايلمسه قارئ هذا الكتاب/الخطبة (هتاف المجد) من الملكة الخطابية الفذة التي امتاز الشيخ بها في كل المواقف التي تعرض للخطابة فيها.

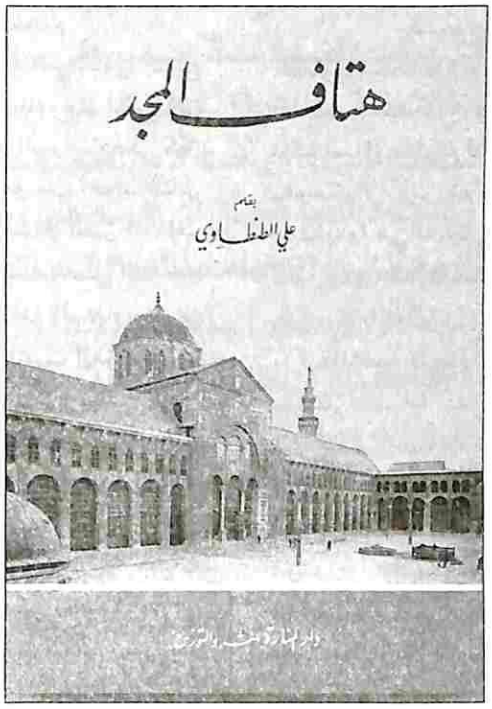


ومن أوضح الأمثلة على تمكن الشيخ من جذب المستمعين إليه أنه أيام مقاومة الاستعمار الفرنسي في سورية جاءه جماعة من طلاب الطب وهو في كلية الحقوق وقالوا له: «إننا نفتش عنك، فهيا معنا، قلت إلى أين؟ قالوا: إلى الأموي، فقد احتشد فيه جمهور من غير الوطنيين، واستعدوا له من أيام، وأعدوا خطباءهم، فرأينا أنهم لايقوم له غيرك، فحاولت الاعتذار، فقطعوا علي طريقه حين قالوا: هذا قرار الكتلة (الوطنية)، فذهبت، وكان لي بحمد الله صوت جهير، فقمت على السدة مما يلي باب العمارة، وناديت: إليّ إليّ عباد الله! وكان نداء غير مألوف. ثم صار ذلك شعارا لي كلما خطبت، فلما التفتوا إلي بدأت ببيت شوقي:

وإذا أتونا بالصفوف كثيرة
جئنا بصف واحد لن يكسرا

وأشرت إلى صفوفهم المرصوصة وسط المسجد، وإلى صفنا، وأفضت في الكلام أضرب على وترين لهما في نفس كل سامع صدى: **الدين** وهو أول محرك للناس إن كانوا مؤمنين، وكان القائل صادقا فيما يقول، **والاستقلال** وهو مطمح كل سوري إلا من مالت به الدنيا ومنافعها إلى تأييد الغاصبين فآثرها على آخرته وعلى مرضاة ربه"[١١].

ومن مواقفه الخطابية الارتجالية المشهورة قيادته المظاهرات الشعبية التي قامت في بغداد تأييدا لسوريا ضد فرنسا أيام الاحتلال سنة ١٣٥٨هـ/١٩٣٩ م. وكان قد نشر مقالة خطابية في صحف بغداد ناشد فيها الملك غازي بن فيصل بن الحسين بنصرة الشعب السوري وذكره بأيام

بغداد الخوالي عندما نهض المعتصم من بغداد لنجدة امرأة في عمورية، وكان لمقالته الخطابية صدى واسع أذيعت من محطة بغداد فسمع الناس صوت الملك غازي يقول مستجيبا: لبيك .. لبيك. وسارت بعد ذلك مسيرات غاضبة تأييدا لسوريا. وكان الشيخ يقود المسيرات ويحمس الناس فيقول عن ذلك: "أما أنا فكلما تقدم الموكب مئة متر دعيت لإلقاء خطبة، فلم نصل إلى جسر «موت» حتى بح صوتي وانقطع ولم يحدث لي مثل ذلك وأنا أخطب من أكثر من ستين سنة إلا هذه المرة"[١٢].

ومن ذلك خطبته في دير الزور حيث كان يعمل معلما فأراد منه إمام المسجد أن يخطب الجمعة. يقول الشيخ: "وكانت باريس قد سقطت في يد الألمان، وكانت الاضطرابات قد عادت إلى الشام، فقلت له: أنت تعلم ياشيخ حسين أنني كالقنبلة التي لايمسكها أن تنطلق إلا مسمار صغير، وأخاف أن تطغى بي الحماسة فأقول ما لايناسب المقام. فإلى أي مدى يسمح لي الموقف بالكلام؟ فضحك وقال: قل ماتشاء، فالمجال أمامك فسيح." فألقى الشيخ "خطبة من تلك الخطب النارية" التي كان لها الأثر الكبير في نفوس الناس غير أنها لم تكن مكتوبة فضاعت في المئات من الخطب. وكانت النتيجة أن خرج الناس من المسجد إلى ثكنات الجيش الفرنسي، وصدر أمر باعتقال الخطيب المعلم الطنطاوي، ثم أقيل من التعليم نهائيا"[١٣].

ومن أشهر خطبه المرتجلة تلك التي ألقاها في حفل وداع الرحلة البرية التي خرج فيها إلى الحجاز سنة ١٣٥٢ هـ فيقول عنها: "وقف الموكب ظاهر دمشق حول قبة العسالي، وقد ملأ الناس الساحة على رحبها، وقام الخطباء يخطبون، وقمت أنا أشكرهم باسم الوفد، وأودعهم، وأشرح مقاصد الرحلة، وكانت الشمس قد جنحت إلى المغيب فزاد شحوبها الموكب هيبة وجلالا، وأقبل كل من المودعين على ذويه يودعهم فلم تكن ترى إلا العناق والتقبيل والدموع التي تسيل. ورقت نفسي رقة شديدة، وحين ترق النفس، ويحضر القلب، ينطلق اللسان بما لاعهد لصاحبه به، وألقيت على الناس كلمة، لو سئلت ماذا قلت فيها لما دريت، لأني لم ألق كلاما أدبيا، من طرف اللسان، بل قولا روحانيا من أعماق الجنان." وهذا دليل واضح على مدى تفاعل الشيخ مع مايقول.

ويقول: "وقد وقع لي مثل هذا مرات سأذكرها تحدثا بنعمة الله، منها: يوم اجتمع علماء سورية كلها وقابلوا (أيام الوحدة مع مصر) كمال الدين حسين، وشرفوني فكلفوني الكلام عنهم، ويوم انقطع الغيث (أيام الوحدة أيضا) سنتين متعاقبتين فدعوت إلى إحياء سنة الاستسقاء، وكانت معطلة في الشام من زمن قديم، فتكلم السيد مكي الكتاني الرجل الصالح النبيل، ثم تكلمت أنا بكلام لم أحفظه، لكن رأيت من أثره وأثر ماقال السيد أن العيون فاضت بالدموع، والقلوب توجهت إلى الله بالدعاء، ولطف الله بعباده فهطلت الأمطار بعد يوم أو يومين، حتى امتلأت العيون، وروي الناس والحيوان، وأمرعت الأرض، وكان فضل الله عظيما"[١٤].

هذا هو الشيخ علي الطنطاوي كما عرفناه وقرأناه نحن جيل الشباب، وكما عرفته الأمة من مشرقها إلى مغربها ومن شمالها إلى جنوبها خطيبا مفوها ملك أعواد المنابر ردحا غير قصير من الزمن، وصاحب كلمة فريدة قلما امتطى صهوتها غيره، وهو بحق صاحب مدرسة أصيلة في الخطابة المكتوبة على صفحات المجلات والصحف ، والمرتجلة على أعواد المنابر، والمسموعة على موجات الأثير.■

الطنطاوي في المظاهرة الكبرى بميدان جامع مرجان (بغداد) في ١٩٣٩م

**الهوامش:**

١- هتاف المجد، ص ١٩
٢ - السابق، ص ٣٤
٣- السابق، ص ٣٩
٤- السابق، ص ٣٩
٥- السابق، ص ٧٧
٦- السابق، ص ٨١
٧- السابق، ص ٨١
٨- السابق، ص٦٣.
٩ - السابق ،ص.١٥٩
١٠- ذكريات، ج ٢/٦٦
١١- السابق، ج٢/٦٧
١٢- السابق، ج٤/٩٩-١٠٢
١٣- السابق، ج٤/١٥٨-١٦٠
١٤- السابق، ج٣/٦٠-٦١